١٠

توظيف التراث في مجموعة (همس السواقي) القصصية حكايات من عصري الجليد والرماد للدكتور (جبير صالح حمادي)

اعداد الدكتور

غانم احمد حسين

قسم اصول الدين

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي-الجامعة العراقية
كلية التربية للبنات

ملخص البحث

يحاول الأديب –الروائي والقاص على وجه العموم– تتبع الماضي بكل دقة وحذر ويجتهد أن يختار منه ما يشد به عزيمته ويقوي مادته. ويعمل جاهداً ليتمكن من نقل تاريخ الأمم السابقة الى القارئ بصورة فنية تناسب ذوقه وتحاكي خياله، فهو يقف للموروث وقفة اجلال واكبار.

وان مجموعة (همس السواقي) القصصية للقاص العراقي (جبير صالح حمادي) أبرز مثال على توظيف الموروث بكل ما فيه من حيوية وصراع ومأساة وحزن وفرح بأسلوب أدبي فني فهي تحاكي الواقع البسيط الذي كان يعيشه المجتمع العراقي والبغدادي على وجه الخصوص في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين. في مجتمع تسوده البساطة والألفة والمحبة على ما فيه من شظف العيش ومكابدة الحياة. فهو مجتمع تخلى عن كل ما يميز الانسان من طوائف وأديان ومذاهب ليعيش في ألفة وتكاتف.

قد حاولت في هذا البحث أن أسلط الضوء على كيفية توظيف الكاتب للتراث في هذه المجموعة القصصية. فنجد مثلاً توظيف الأشخاص والمكان والزمان والتراث والعادات والتقاليد وأنواع الطعام والملبس لا سيما الدينية منها والتي أوشكت كثيراً منها على الانقراض في وقتنا الحاضر.

Abstract

The writer - novelist and storyteller in general - tries to follow the past with precision and caution, and he strives to choose from it what strengthens his resolve and strengthens his material. And he strives to be able to convey the history of previous nations to the reader in an artistic way that suits his taste and simulates his imagination.

And the group (hmis alsawaqi- Whisper Al-Sawaqi) the stories of the Iraqi storyteller (Jabir Saleh Hammadi) is the most prominent example of the use of heritage with all its vitality, conflict, tragedy, sadness and joy in a literary artistic style, as it simulates the simple reality that Iraqi society and al-Baghdadi lived in in particular at the beginning of the second half of the century Twenty. In a society dominated by simplicity, familiarity and love, the hardships of living and the struggles of life. It is a society that has abandoned all the sects, religions and sects that distinguish the human being, in order to live in familiarity and solidarity.

In this paper, I have attempted to shed light on how the author employs heritage in this collection of stories. We find, for example, the employment of people, place, time, heritage, customs, traditions, types of food and clothing, especially religious ones, many of which are on the verge of extinction at the present time.

المقدمة

الحمد لله وحدة والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن استن بسنته وسار على هديه الى يوم الدين. وبعد:

أولى النقاد قديماً وحديثاً للتراث اهتماً كبيراً. فهو من أهم القضايا المطروحة على الساحة النقدية على مختلف عصورها وأزمنتها. فقد تكلم النقاد والعلماء في هذا المجال بشكل واسع بدءاً من قضية المزاوجة بين القديم والحديث. فصار الأمر الى الأخذ من القديم ما أطور به الحديث وأستلهم منه الدروس والعبر. فالسير على خطى الأولين لا شك يثري الحديث ويمنحه القوة والرصانة. لذلك نجد أن التراث هو الملجأ والمسلك الذي يتكئ عليه الكاتب والمبدع المعاصر، فيحاكيه ويستدعي منه ما يماثل تجربته وميوله الفكرية. فالمادة التراثية بما تحمله من زخم معرفي وثقافي وفني أدبي. فتحت الباب واسعاً أمام النقاد والباحثين المعاصرين للخوض في غمارها واستلهام تجربتها. فهو يعكس صورة واضحة المعالم عن حقيقة زمنية معينة تنوعت فيها الحياة الاجتماعية والثقافية والدينية على مختلف اتجاهاتها وميادينها.

لذلك نرى أن الأديب الروائي والقاص على وجه العموم وقف للموروث وقفة اجلال واكبار. فقد تتبع الماضي بكل دقة وحذر وحاول أن يجذ منه ما يشد به عزيمته ويقوي مادته. وعمل جاهداً ليتمكن من نقل تاريخ الأمم السابقة الى القارئ بصورة فنية تناسب ذوقه وتحاكي خياله.

فمجموعة (همس السواقي) القصصية للقاص العراقي (جبير صالح حمادي) أبرز مثال على توظيف الموروث بكل ما فيه من حيوية وصراع ومأساة وحزن وفرح بأسلوب أدبي فني فهي تحاكي الواقع البسيط الذي كان يعيشه المجتمع العراقي والبغدادي على وجه الخصوص في بدايات النصف الثاني من القرن العشرين. في مجتمع تسوده البساطة والألفة والمحبة على ما فيه من شظف العيش ومكابدة الحياة. فهو مجتمع تخلى عن كل ما يميز الانسان من طوائف وأديان ومذاهب ليعيش في ألفة وتكاتف. وقد حاولت في هذا البحث أن أسلط الضوء على كيفية توظيف الكاتب للتراث في هذه المجموعة القصصية. فنجد مثلاً توظيف الأشخاص والمكان والزمان والتراث والعادات والتقاليد وأنواع الطعام والملبس لا سيما الدينية منها والتي أوشكت كثيراً منها على الانقراض في وقتنا الحاضر.

مدخل

التراث لغة»: أصله من الفعل ((ورث)) ((ميراثا))) أي انتقل الى الشخص ما كان لأبويه فصار ميراثا» له[1] . وقد ورد ذلك في القرآن الكريم بقوله تعالى في سورة النمل ((وورث سليمان داوود)) . وفي قوله تعالى في سورة الأحزاب ((وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها ..)) [آية ٦٧]

التراث في الاصطلاح: اختلف النقاد والأدباء في تحديد مفهوم التراث بين القديم والحديث. فهو ((ما خلفه السلف من آثار علمية وفنية وأدبية مما يعبر نفسياً لتقاليد العصر الحاضر وروحه)) [٢]. وتعرفه (وطفاء حمادي) بأنه ((كل ما يشتمل العادات والتقاليد والممارسات والخرافات والملامح والآثار وما طرأ في القرن العشرين بحيث صار يشمل الفنون القولية بجميع أشكالها والسلوك وكل ما يدخل في التعبير من وجدان الشعب وله صفة الاستمرارية))[٣]. فهو يعبر عن تاريخ أمة ومستقبلها لذلك لجأ اليه الدارسون في محاولة منهم لاستلهام هذا التراث والنيل منه في تحديد وجهاتهم وآرائهم. فالتراث العربي هو كل ما ابتدعته المجتمعات العربية في حركة صيرورتها التاريخية منذ العصر الجاهلي، حتى بداية مرحلة الاستعمار في مطلع القرن التاسع عشر من فكر وثقافة وقيم أخلاقية ما تزال محفوظة لنا في صورة من صور التاريخ[٤]. فهو الصورة الحية التي تنقل للأجيال اللاحقة ثقافة السلف وتوجهاتهم وميولهم. لذلك يختزل (حسين محمد سلمان) كل الأقاويل والتعريفات بقوله ((هو ما تراكم خلال الأزمنة من تقاليد وعادات وتجارب وخبرات وفنون وعلوم في شعب من الشعوب، وهو جزء أساسي من قوامه الاجتماعي والانساني والتاريخي والخلقي، ويوثق علاقته بالأجيال الغابرة التي عملت على تكوين هذا التراث واغنائه فنيا». ويبرز فعل التراث في أعمال الأدباء والفنانين فتصبح هذه الآثار محصلاً لانصهار معطيات التراث وموحيات الشخصية الفردية))[٥]. فهو مجمل انجازات العصور السابقة لوقتنا الحاضر وما تشمل هذه الانجازات من علوم وثقافة وفنون.

المطلب الأول
توظيف الشخصية التراثية

تمثل الشخصية نواة العمل السردي ونقطة الارتكاز التي يتكأ عليها السارد. اذ تعد المحور الرئيس الذي تدور حوله الأحداث. فتتشابك وتتشعب بفعل الشخصية وحركتها وحيويتها وطريقة تعاملها فيما بينها. اذ أن الحدث هو خلاصة أفكار الشخصية ونمط حياتها. فالشخصية والحدث متشابكان لأنهما يعملان في اطار واحد. لذلك اهتم بها النقاد والمبدعون وأولوها اهتماما كبيراً لأن ((طبيعة الشخصيات وقدرتها بوجه عام تأتي بالمقدار الذي يتطلبه الحدث))[٦]. فعن طريق الشخصيات تتكون وتتجلى وجهة النظر والوصف والحوار وتقنيتي الاسترجاع والاستباق. فهي مركز استقطاب لكل العناصر السردية الأخرى. تكونها وتتفاعل معها مكونة حدث سردي حكائي. ((فالكاتب يخلق أشخاصه مستوحياً في خلقهم الواقع، مستعيناً بالتجارب التي عاناها هو أو لحظها، وهو يعرف كل شيء عنها، ولكنه لا يفضي بكل شيء، فلا يصح أن يذكر تفصيلات الحياة اليومية، اذا كانت لا تمت بصلة الى فكرة القصة. وانما يعني الكاتب بما يخص الصلاة الانسانية والنوازع النفسية))[٧]

لذلك يعرف (توماشفسكي) الشخصية بأنها

نوع من الدعائم الحية لمختلف الحوافز ويجعل وظيفتها خلق نسق الحوافز وربطها وهي بذلك تقوم بدور خيط مرشد بين ركام الحوافز يسهل عملية انتباه القارئ ويشده الى متابعة العمل والخوض في غماره ودواخله مما يؤدي الى زيادة التشويق والاستماع[٨]

فمحور حديثنا في هذا البحث هو كيفية توظيف هذه الشخصية. وبالخصوص الشخصية التراثية في العمل الأدبي. وما هو الغرض المنشود من هذا التوظيف والدلالة. فنجد أن القاص الذي هو محل اهتمامنا في هذا البحث في مجموعته القصصية (همس السواقي) قد وظف الكثير من الشخصيات التراثية في هذه المجموعة منها ما عايشها شخصياً في طفولته وبقيت عالقة في ذهنه فأراد أن يبعثها للقارئ ويصورها بما فيها من مزايا وأمجاد تستحق ابرازها والفخر بها. ومنها ما جاءت عن طريق الرواية والحكاية لشخصيات سبقت عصر الكاتب ولكن أثرها بقي على مر الزمن ومن أهم هذه الشخصيات نجدها في قصة (اقبال خالد عروس الحقول) اذ يقول القاص ((السيد علي الصفوك هو في الأصل مدرب خيول، فكان طبيعياً أن تصير المراهنات في حياته نشاطاً لا يثير الاستغراب كثيراً ما كان يعود الى بيته على صهوة جواده أو فرس، يمسك لجامه بوقار وصرامة، وهو يرتدي الزي العربي لتستقبله زوجته (أم حسن) وهي في مجلسها المعتاد الذي لا تفارقه. ان أم حسن وباب الدار توأمان سياميان لم ينفصلا بعد.

عصر أحد الأيام توقفت سيارة حمل أمام داره، فترجل منها شابان قرويان، استقبلهما أبو حسن بترحاب، ثم انهمكوا جميعا في انزال فرس من (اللوري). وضع ابو حسن (الرسن) في عنق الفرس، وراح يتأملها بأعجاب، وهو يصلي على النبي، صلوات الله وسلامه عليه، ثم أدخلها وضيوفه الدار))[٩] وظف الكاتب شخصية (أبو حسن) التي تعود جذورها الى ستينيات القرن الماضي في قصته. لينقل للقارئ صورة حية واضحة المعالم عن حياة المجتمع في تلك المدة الزمنية التي تتسم بالبساطة والعفوية، فنجد أن هذه الشخصية التي تحترف مهنة تدريب الخيول محل انجذاب لكل الناس. اذ كان (أبو حسن) مع أولاده يهتمون بتنظيم السباق والمراهنات بين الخيول. لذلك كان الناس يتقاطرون إليهم من كل حدب وصوب لينهلوا من خبرتهم ويتعلموا منهم هذه المهنة التي كانت شائعة في ذلك الزمان. فنرى أن الكاتب يكتب بحنية شديدة لتلك الأيام الخوالي التي كان يعيش فيها في مقتبل صباه. فيشوق القارئ الى متابعة القراءة ومعرفة نهاية الحكاية التي تؤول اليها الأحداث

ونجد شخصية أخرى اهتم بها الكاتب وأورد ذكرها في قصة (أسعد دهش ودجاجاته الفرنسيات) لما تحمله من نزعة انسانية تترك أثراً في نفس كل من عايشها والتقى بها اذ يقول: ((تلكم الدجاجات الاشتراكيات ذكرنني بأسعد دهش ودجاجاته الفرنسيات. هو واحد من أبناء محلتنا من الطائفة المندائية. وهو من الأصدقاء المقربين الأوفياء ..

وكان يكبرني سناً دمث الأخلاق، شأن المندائيين الآخرين الذين عايشناهم، والذين نحتفظ لهم بأجمل الذكريات، ومنهم ابن عمه قيس نعيم سلطان، الذي بلغ حب أبناء المحلة له حداً، جعلهم يصرون على اقامة مجاس عزاء على الطريقة الاسلامية لأخيه سامي، حين أستشهد في الحرب العراقية الايرانية. رقيق الطبع، مرح، باسم الوجه نديم يذكي أجواء المرح في جلسات الأنس، حريص على الأجواء الشاعرية والأناقة في أثناء تلك الجلسات، ولهذا اجتهد في تطوير ساحة البيت الداخلية (الحوش) وجعلها حديقة صغيرة، زينها بأنواع الورود والنباتات البهية، التي يتولى بنفسه رشها بالماء عصراً، لينتعش الجو فيها، . فيبدأ هو فعالياته بعد الغروب، وحرصاً منه على اضفاء اللمسات الشاعرية على حديقته قام بصنع قفص خشبي أنيق في جانب منها ليضع فيه الدجاج))[١٠]

قدم الكاتب شخصية (أسعد دهش) الذي عنون القصة باسمه. وحرص على نقل كل صفات هذه الشخصية التراثية للقارئ. لما تمثل له هذه الشخصية من محطات مهمة في حياته. اذ نجد أن الكاتب قضى شطراً من حياته مع هذه الشخصية وله مواقف كثيراً معها. فهي أنموذج يمثل مدى تماسك المجتمع في تلك الحقبة الزمنية التي اجتمع فيها الناس من كل الطوائف والفرق والأديان في بوتقة واحدة. فرفضوا كل القيود والأغلال التي تقيد الانسان وتحد من حريته في التعامل والتعايش مع أبناء جنسه. فكانت حياة مليئة بالإيثار والتضحية والمنافسة وعمل الخير. وهذا ما أراد الكاتب ايصاله للقارئ عن طريق هذه القصة.

وكذلك نجد في قصة (نديم وندامى) مثالاً آخراً للشخصية التي تمثل التراث. اذ جسد الراوي شخصية (فخري أبو شوارب) أفضل تجسيد ونقل كل صفات هذه الشخصية بطريقة تشوق القارئ وتشده الى متابعة الأحداث. فيقول ((فخري أبو شوارب –سيد الجلسات وأمير الندامى بلا منازع. ولو كانت المنادمة من بين النشاطات التي تتيح الترشيح لنيل جائزة الأوسكار أو السعفة الذهبية، لكان فخري من المرشحين. موفوري الحظوظ، للفوز بواحدة منها أو بكليهما.

موظف بإحدى الوزارات، جمعته بثلاثة من زملائه ميول مشتركة جعلتهم زمرة –أو خلية ثورية كما كان يحلو له أن يسميها –معروفة، اشتهرت بالغواية والاستهانة بالأوامر. كثيراً ما كانوا يتسللون من دوائرهم خلسة، ويلتقون في واحدة من (بارات) (أبو نؤاس)، مما دفع الجهات المعنية الى نقلهم خارج مركز الوزارة وتوزيعهم على دوائرها ومديرياتها المختلفة. وقد اختير لفخري مديرية، عرف مديرها العام بالحزم والقوة، رغبة في تقييد حركاته والحد من سلوكه الذي يثير الاستياء)) [١١].

شخصية أخرى وظفها الكاتب في مجموعته القصصية. اهتم لأمرها وقدمها للقارئ لأنها تأخذ حيزاً كبيراً من ذاكرته وتشكل مكانة مهمة من رصيده التراثي الذي عاش فيه وشهد أحداثه. فهذه

الشخصية مثالاً رائعاً للألفة والمحبة التي تبقى ذكراها عالقة في الذهن. فهي لها توجهات وميول عديدة منها ما كان خارجاً عن الذوق العام كتعلقه بالبارات والمقاهي الليلية هذه من الناحية الشخصية. أما من الناحية الموضوعية فهي شخصية اجتماعية بكل ما تحمله الكلمة من دلالات ومعاني لها الأثر الطيب في نفس كل من عرفها وعمل معها.

المطلب الثاني
توظيف المكان التراثي

يمثل المكان الحاضنة التي تحتضن العمل الروائي. وتجري فيه كل أحداثه. فهو مدار عمل الشخصيات. تزداد هذه الأهمية أو تقل حسب مقدرة الروائي على خلق وتكوين عوالم مكانية تجري فيها الأحداث سواء كان المكان واقعياً أم خيالياً. اذ أن المكان لا يملك صفة معينة بحد ذاته من الألفة والعداوة أو الانفتاح والانغلاق وانما الاحداث التي تجري فيه هي التي تحدد هذه الصفة وتكسبه هوية معينة. ففي كثير من الأحيان تتحول دلالة المكان من الالفة الى العداوة وبالعكس. فمثلاً أن (السجن) هو مكان عداوة ونفور بطبيعته ولكن قد تتغير هذه الدلالة بسبب ظرف وحدث طارئ يغير شكل المكان والشعور والاحساس تجاهه. على النقيض من ذلك نجد (المنزل) الدي هو مكان ألفة ومحبة وأمان هذه هي الصفة الطاغية عليه. غير أن هذه الصفة غير ثابتة اذ سرعان ما تتحول هذه الصفة بتغير الحدث الذي يجري في هذا المكان فيتحول هذا المكان الاليف الى مكان موحش تنفر منه النفس الانسانية وتجد فيه الظلمة والعدوانية. ((اذ يشكل للمكان استغلال نسبي ووجود ثابت له أو مميز، هو الوحدة المتكاملة للخواص التي يرتبط فيها ويتفاعل بها مع الأشياء الأخرى. لأن المكان يعنى في كل ثقافة على نحو مختلف. وأن كل ثقافة مهيئة لاحتواء أماكن بالغة الاختلاف وتتضمن مراتب متنوعة من الأماكن كدلك يساعد المكان على فك المكان النص الروائي، ومن خلال المكان تستطيع الأحداث والشخصيات الروائية أن تؤدي دورها بشكل أفضل))[١٢]

لذلك فان المكان يمثل قضية فلسفية ذات قيمة وجودية. ودلك لأن هناك ارتباط وثيق ومتين بين المكان والانسان الدي يمثل وجوده ويحمل كل ذكرياته ففي كثير من الأحيان نجد أن الأنسان يحن ويميل الى مكان نشأته مهما بعد عنه.

ما يهمنا هنا هو المكان الموروث أو التراثي الدي وظفه القاص (جبير صالح) في قصصه وكيف حاول أن ينقل للقارئ صورة معبرة وحية عن هذا المكان الدي يحمل بين طياته كل ذكرياته التي تمثل تاريخه وصباه. ومثال ذلك ما نجده في قصة (سعيد ورضية) اذ يقول:((أهلنا في محلتنا القديمة، في تلك الأيام الخوالي ذات النكهة المميزة، المحببة اللاذعة المنعشة شأن الناس جميعا» يثمنون الجمال.. ويقدرونه ويعجبون بمن يتصف به ويحيطونه بعناية ورعاية وأسوار من الحرص، تحدث فيها أحيانا» مآرب خفية، يتسلل منها الطامعون. غير أن لشباب محلتنا آنذاك

فهما» آخر للجمال، لا يلغي مقاييس الشيوخ ولكنه يضع على رأس قائمتها الشبه بممثلي السينما، رجالاً ونساءاً))[١٣]

ينظر القاص للمكان بعين القداسة والحب. اذ نجده في كثير من الأعمال الروائية والقصصية يقدم وصفاً للمكان التراثي الدي عاش فيه. فيسمو به عالياً، يقدمه للقارئ وبين جنبات حروفه حنين لاذع واشتياق لهدا المكان. فنراه في هذا النص يدكر (المحلة) وما كان يحدث في هذا المكان من أحداث تجعل هدا المكان عالقاً في ذهن كل من عاش فيه. فالمكان كما أسلفنا لا يحمل صفة معينة ثابتة وحتمية. وانما لما يحدث فيه من أحداث. فهذا المكان يمثل طبيعة الحياة البسيطة التي تبتعد في كثير من الأحيان عن المطامع الشخصية والحقد والضغينة التي تجعل الانسان ينفر من المكان ويكون صورة سلبية عن هدا الواقع.

ومن الأمكنة التراثية التي ذكرها القاص في مجموعته القصصية ما نجده في قصة (حسين تاجر النجفي) اذ يقول فيها واصفا» المكان التراثي ((في حفل افتتاح معرض بغداد الدولي، وفي دورته الأولى، تجمعنا عدد من صبية المحلة الصغار عصراً وأحطنا بأخوتنا الشباب اليافعين متوسلين، لكي ننال موافقتهم على اصطحابنا الى حفل الافتتاح، مبدين صبراً محموداً على الزجر والرفض والوعيد واعدين اياهم بخشوع واستكانة بالطاعة والالتزام وعدم المطالبة بشراء (لفات العمبة) .. ..

وصلنا الى المعرض وقد أوشكت الشمس على المغيب زحام كبير وأعداد هائلة من السيارات، وأتربة كثيفة تصاعدت بفعل حركتها، اذ لم تكن الساحات حول المعرض معبدة. وبهرت أنظارنا الأضواء الكاشفة الملونة، وهي تعلو وترسب وسط الغبار.

دخلنا المعرض بلهفة من يدخل الفردوس. تعثر عادل لازم جراء الزحام فسقط أرضاً، الا انه هب واقفاً، غير مبال بما أصابه من رضوض اذ المهم أنه دخل المعرض. أما سالم معيوف فلم ينقطع عن ترديد عبارته المشهورة (يابابه .. .. . لك هاي شنو!) . مشاهد وفعاليات رائعة تخلب الألباب، وفي أثناء هذا أعلنت الإذاعة الداخلية نبأ عن فعالية للقوى يؤديها البطل حسين تاجر النجفي))[١٤]

معرض بغداد الدولي. هذا المكان التاريخي التراثي. الذي ركز عليه الكاتب في قصته. اذ نلحظ ان لهذا المكان وقع خاص في نفس القاص وفي نفوس كل من راوده. فهو صرح علمي وتراثي وواجهة للمدينة المعبر عن ثقافتها في كل بقاع الارض. لذلك حرص الكاتب على نقل لواعج الحب والوله الدي يصيب الصغار قبل الكبار في التأكيد على زيارته والتمتع بمناظره الخلابة التي تبهر الأنظار وتستهويها الأنفس. لهدا نقل القاص للقارئ صورة حية عن هذا المكان تعبر عن مدى أهميته وتراثيته.

ونأخذ مثالاً آخراً عن المكان التراثي في قصة (اعتراف في متحف المشاهير) اذ يقول الكاتب ((شغلني جمال المناظر الطبيعية الساحرة عن متابعة حديث أبي نوح، وهو يعدد أسماء المشاهير المعروضة

تماثيلهم في المتحف فكنت أتظاهر بالأصغاء، أما وعيي فكان مشتتاً، بين مناظر الجبال وسحر الخضرة وزرقة السماء وعذوبة النسيم، فلم يبق لأبي نوح إلا النزر اليسير منه، ولكن حين استقبلتنا تلك المرشدة السياحية الحسناء، التي أسعدتنا بكونها مرشدتنا ودليلنا في المتحف تجمع شتات وعيي في لحظة خاطفة، حتى النزر اليسير الذي كان من نصيب أبي نوح، فتراكم الوعي سعيداً، وأسلم زمامه وزمامنا لأنامل الدليل بطواعية ورضا واستبشار ... وكان جبران خليل جبران أول المشاهير الذين وقفنا بحضراتهم. وقفنا بخشوع واجلال، لن أدعي أن الأديب الرائع هو الذي أثارهما في نفوسنا، ولن أحاول أن أتقصى أسباب السكون والوداعة اللذين تلبسا زميلي، ففي دلك استهانة بنعمة كبرى حلت علينا وهي ذلك الصفاء الساحر والخضرة الغامرة المنبعثة من عيني مرشدتنا، التي تستحق بجدارة تمثالاً في المتحف. أشارت الينا بيدها لنتوجه الى قاعة أخرى تصدرها تمثال، علقت على الجدار خلفه مجموعة من اللوحات الزيتية عرفته قائلة: أنه (فان كوخ) الرسام العالمي المشهور))[١٥]

انتقل المؤلف بالقارئ في هذه القصة الى (لبنان) وزيارته متحف المشاهير. فأخذ يقص للقارئ تفاصيل هذه المكان بدءاً من المناظر الطبيعة السياحية المحيطة به التي تأخذ بالألباب بجمال سحرها. اذ نجد أن القاص صور هذا المكان بشغف وهو يحاول أن يستجمع كل ما جادت به قريحته اللغوية والبلاغية والأسلوبية من أجل ايصال صورة واضحة المعالم عن هدا المكان التراثي البارز في سماء لبنان والوطن العربي والعالم؛ لما يحويه من تحف تذكارية لأشهر شخصيات العالم فنانين وعلماء وأدباء وشعراء. فكان هذا انموذج تراثي وقف عنده القاص ومنحه الكثير من الرعاية والاهتمام. فجعل المتلقي وكأنه أمام مشهد حي وفيلم وثائقي يعرض كل ما يقال، فيرسم في مخيلته هذه اللوحات الفنية التي قدمها له الكاتب.

المطلب الثالث
توظيف العادات والتقاليد والهوايات التراثية

حرص الكاتب في الكثير من أعماله الأدبية على ابراز الوجه الأجمل للماضي. فكان يحب القديم على الرغم من متعة الحديث. لكن يبقى للقديم ذلك الوجه البراق اللامع الذهبي الذي لا يصدأ مهما مرت عليه ظروف قاسية قد تغير قليلاً من ملامحه لكن سرعان ما يعود لأفضل مما كان. فهو يسلخ عنه ثوب الردى ليعود فتياً ناعماً ناصع البياض.

لذلك نجد أن القاص ركز على تصوير العادات والتقاليد والهوايات التي كانت سائدة في المجتمع. والتي تعبر عن الألفة والحياة السليمة الهادئة. اذ نرى أن هذا المجتمع يلغي كل القيود التي تحد من حركته ليتفاعل فيما بينه في كل مداخل الحياة.

فمن الهوايات التي كانت سائد في المجتمع في ستينيات القرن الماضي هواية تربية الخيول وتغذيتها

والمنافسة في تنويع نسلها لأعدادها بعد ذلك للسباق. ونلحظ ذلك في قصة (اقبال خالد عروس الحقول) يقول القاص: ((في الستينات تجاور القديم والحديث في محلتنا ... التراث والمعاصرة في كل شيء ... الملبس والمأكل والمشرب والتقاليد والقيم ... نعم في القيم أيضاً! وكانت المحلة تغفو باسمة، وهي تحتضن هدا الخليط، مثل دجاجة تضم أفراخها بحنان.

في أيام الجمعات كانت الاستعدادات تسير باتجاهين.. . فئة تستعد لأداء صلاة الجمعة وفئة تبكر بالذهاب الى (الريسز) -سباق الخيول. تبدأ استعدادات الفئة الثانية منذ مساء الخميس، فيتقاطر الهواة على (البكية) -سماسرة -الرهانات-وأشهرهم (لطيف البكي) ومهدي ناجي، ويليهم في الشهرة عدد آخر، منهم (علي الصفوك) جار مهدي راضي، وهما من جيراننا في الزقاق))[١٦].

تراث آخر أثرى به القاص كتاباته. وهو العادات والهوايات التي كانت شائعة في الماضي. فنظام الحياة في تلك المدة الزمنية كان يتسم بالبساطة والسهولة؛ اذ ان التكنلوجيا الحديثة وعالم الشبكة العنكبوتية (الانترنت) الذي يضع العالم بأسره في قرية صغيرة. مما يؤدي الى اتساع نطاق الحياة وتعدد مشاربها. وبذلك تتعدد الهوايات والميول. لهذا نجد أن سباق الخيول (الريسز) كان من أفضل الهوايات التي يحترفها الناس ويتنافس في اتقانها؛ لما تؤديه هذه اللعبة من متعة وفخر للفوز بها؛ فالقاص قدمها كأنموذج للتراث وسط هدا العالم الرقمي الحديث.

ومثال تراثي آخر نجده في قصة (حسين تاجر النجفي) اذ يقول القاص: ((منذ اليوم الأول من شهر محرم الحرام تكتسي محلتنا حله غير ما اعتادته، فيزدان الشارع الرئيس وتفرعاته بالنشرات الضوئية والأعلام، وتعلو أصوات آلات التسجيل مرددة القصائد الدينية. وفي المساء تتوالى مجاميع اللطميات وضاربي الزناجيل متشحة بالسواد، يتبعها الجحفلان الخصمان. جحفل سيدنا الحسين (عليه السلام)، يرفل أفراده بالحلل الخضراء ... لون السندس والاستبرق، وجحفل الشمر، تجلل أفراده ملابس حمراء اللون، عويل النساء يتعالى والأكف تلطم الصدور وصيحات الـ (يبوووه) تملأ الأرجاء، حين يمر الجحفلان أمام مجاميع النساء))[١٧].

قضية سيدنا الحسين (عليه السلام) هذه الحادثة التي شغلت العالم كله لما حدث فيها من ظلم وحرمان وألم وخيانة راح ضحيتها سبط رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة. توشح العالم كله بالسواد حزناً على هذا المصاب الجلل الذي بقيت ذكراه عالقة في قلوب المسلمين وغيرهم خالدة على مر العصور والأزمان. لذلك نجد أن القاص أورد هذه الحادثة ضمنياً في قصته (حسين تاجر النجفي) ليبين للناس تراثية هذه الحادثة في نفوس الناس منذ أقدم العصور؛ فقد كانوا يحيون شعائرها وينصبون المآتم ويطبخون الطعام صدقة على أرواح شهداء هذه الحادثة الأليمة. لهذا نجد أن القاص صور هذه العوالم وتفاصيلها ليقدم للقارئ انموذج

توظيف التراث في مجموعة (همس السواقي) القصصية حكايات من عصري الجليد والرماد للدكتور (جبير صالح حمادي)

للعادات والتقاليد الدينية التي توارثها الناس عن آبائهم وأجدادهم يتقربون بها الى الله (جل جلاله) ويعبرون عن حزنهم وألمهم لهذا الحدث العظيم في تأريخ البشرية.

ونجد في قصة (ركض ولهاث وخباز) انموذج آخر للعادات والتقاليد اذ يقول القاص: ((تعلقت بصورة تنور السياب، لأنها تعيدني دوماً الى دفء تنورنا وتنانير جيراننا... خالتي أم عدنان وجارتنا فضيلة (أم الخضروات) والحاجة ظعينة، مثلما تعيدني الى ذكريات (المنقلة) التي كانت أمي رحمها الله توقدها في ليالي الشتاء الباردة، فنتحلق حولها، وهي تروي لنا واحدة من قصصها الكثيرة الشيقة)) (١٨)

عادات وتقاليد تكاد تنقرض في الوقت الحاضر إلا في بعض مناطق الأرياف الجميلة التي بقيت محافظة على عاداتها وتقاليدها القديمة على الرغم من التطور الدي حصل فيها الا ان ساكني هذه المناطق يجدون في هذه الأشياء أصالتهم وحلقة الوصل بآبائهم. فالقاص أورد هذه التفاصيل كذكرى للعالم الجميل. عالم يسوده البساطة والود. فيه رائحة عبق الماضي الرائع بكل تفاصيله. على الرغم من صعوبة الحياة الا انها تتجاوز هذه الصعوبة بالبساطة والهدوء والألفة

المطلب الرابع
توظيف الملبس والكسوة التراثية

مما لا شك فيه أن الحياة تتطور يوم بعد يوم في كل نواحيها ومجالاتها. تكتشف هذه الأمة في هدا العصر اكتشافاً تعده نوع من التطور. ثم ما لبثت أن تأتي بعدها أمة تجد أشياء جديدة تنسخ القديم أو تقره وتطوره. فلكل زمن ووقت له آلياته وأدواته التي تبقى عالقة في نفوس أبنائه وذاكرتهم يحتفظون له بشيء من العزة والعلو لأنه يمثل تأريخهم وأصالتهم.

حديثنا في هذا المكان عن الملبس والكسوة التراثية. لا نقول منذ أقدم العصور ولكن في منتصف القرن المنصرم. فعندما نفتش عن أنواع هذه الأزياء نجدها قد اختلفت كثيراً عن الأزياء في الزمن الحاضر. وهذا ان دل على شيء فهو يدل على سرعة الزمن التي تؤدي الى احداث تغيير جذري في الحياة من مدة الى أخرى.

ما يهمنا هنا هو كيفية توظيف القاص (جبير صالح حمادي) لهذه الأزياء التراثية في مجموعته القصصية (همس السواقي) وما هو الغرض المنشود من ذكرها والخوض في تفصيلاتها. ومن أمثلة هذا التراث ما ورد في قصة (اقبال خالد عروس الحقول) اذ يقول القاص : ((يرتدي الشاب زياً عربياً نظيفاً وأنيقاً، وترفل أم الفتاة في (صاية) أنيقة داكنة اللون وتلف رأسها ب(فوطة) و(جرغد)، وأحياناً

(عصابة) من الحرير الأسود أما الفتاة فترتدي ثوباً زاهي الألوان، تحت عباءة من (الكشمير) أو (المانيرا)، وتنتعل حذاء أبيض ذا سيور وجوارب بيضاء. وقد تضع بعضهن مساحيق الزينة وأحمر الشفاه بكثافة ملحوظة ... في المقاهي، وقريباً من الشيوخ والكهول الذين يرتدون كثير منهم الملابس العربية شبان يرتدون (البيجامات) مزهوين، ينظرون الى أقرانهم ممن يرتدون الدشاديش نظرة لا تخلو من تعال ف(البيجاما) في الستينات عنوان من عنوانات الحداثة))(١٩) .

حياة ريفية بدائية حديثة عهد بالتمدن لا تعرف شيء عن المدنية وعوالمها الخفية الصعبة الا ما ندر. تعيش على عادات وتقاليد الآباء والأجداد ومتمسكة بها. وينكرون على من يخالفها أو ينتهكها أشد الانكار اذ يعدونها مقدسة ومحرمة وأن من انتهكها أو خالفها كأنما خالف ركناً أساسياً من أركان الدين. فالقاص في هذا النص نقل مقطعاً درامياً عن طبيعة الحياة وطبيعة اللباس الدي كان سائداً للرجال والنساء في تلك م فيها معالم المرأة والرجل وهم يرتدون هذا النوع من الملبس الذي اختفى نوعا ما أو أوشك على الاختفاء في زماننا هذا.

ومن الأمثلة التطبيقية الأخرى ما نجده في قصة (قلعة موسى بين روح (الزورخانة) وروح الساموراي) اذ يقول الكاتب ((تمشي بغنج على طريقة العارضات المعهودة، وهي تلبس ملابس الفلاحات وبنات الأرياف الثوب الطويل والفوطة و (الجرغد) وتشد وسطها النحيل ب (الشويحي))) (٢٠).

مثال آخر للكسوة التي ترتديها النساء في الأرياف نقلها القاص للقارئ وهو يصور هذا الحرص والتأكيد على اتقان هدا النوع من الألبسة التراثية التي تتميز بها هذه الفئة من المجتمع والتي تمثل جزءاً لا يتجزأ من نسيج حياتها الّي توارثته من تاريخ أسلافها.

المطلب الخامس
توظيف الطعام والمأكل التراثي

لكل مرحلة زمنية نظام ونسق معين يميز هده المدة الزمنية عن غيرها في هذا العالم المادي. كذلك بالنسبة لأصناف الطعام والمأكل. اذ نجد أن لكل مرحلة ما يميزها من أنواع متعددة تشتهر بها وخصوصاً في المجتمع العربي في سابق عصوره اذ نجد مجتمع قبلي يتسم بالبساطة والبداوة. التي تحتم عليه أن يبتدع ويبدع في أصناف عديدة من الطعام ومن أهم هذه الأصناف كما ذكرها القاص في قصته (ركض ولهاث وخباز) اذ يقول: ((أن لعدد من أكلات أيام زمان مداقاً لا ينسى وطعماً لن ينال الزمن من لذته.. .. هي أكلات لا يعرف عنها شباب اليوم شيئاً، مثل (الفسنجون) و(الخميعة) و(الفتيتة) ، وكانت تحمل دلالات التأنق والترف وفرادة الدوق، ولكن لعدد آخر من الأكلات دلالات مغايرة، تشير الى شظف العيش ورقة الحال. ويأتي في رأس قائمة

هدا الصنف من الأكلات الخباز وليس أكثر تعبيرا عن قتامة دلالاته من المثل الشعبي الشهير: (يركض والعشا خباز) هذا المثل الذي يشير الى رقة حال الانسان وبساطة عيشه، على الرغم من شدة كدحه ودأبه في تحصيل لقمة العيش))(٢١)

بساطة ورقة الحال هذا ما أراد القاص التعبير عنه عندما دكر أنواع الطعام السابقة في النص. فنلحظ أن الكاتب أورد عدة أنواع من الأطعمة فهي على بساطتها تنقسم الى قسمين قسم يتمثل بأهل الثراء والترف وقسم آخر يمثل الكادحين والفقراء فـ(الخباز) هذا النبات الدي يعبر عن شظف العيش وصعوبة الحياة. فهو يمثل الحل الأمثل الذي تلجأ اليه الكثير من العائلات عندما لا تتيح لها الظروف التمتع بأنواع الطعام والمأكل.

ومن الأمثلة الأخرى التي ذكرها القاص في مجموعته ما نجده في هذا النص. اذ يقول الكاتب ((تشريب الباقلاء: أكلة شعبية كانت تمثل وجبة فطور صباحي رئيسة لأغلب الناس البسطاء.

يسميها (البغادة) (بأكلة بالدهن)، ويمثل ذوو الانحدار الريفي حرف الكاف جيماً، فتصير عندهم (باجلة بالدهن). وهي من الأكلات التي تطورت دلالتها، فانتقلت الى مرتبة أعلى في السلم الاجتماعي، اذ نضت ثياب البساطة واكتست حلة زاهية، فظهرت مطاعم أنيقة متخصصة بتقديمها للزبائن صباحاً في عدد من مناطق بغداد الراقية، مثل الكرادة وشارع أبي نؤاس والمنصور، يقصدها الزبائن المترفون، ذوو الذائقة الناعمة من مختلف مناطق بغداد.

كانت لي وما تزال -ذكريات وزيارات لواحد من هده المطاعم نال في نفسي حظوة لطابعه الشعبي المميز وجودة ما يقدمه ولطف الألفة الشعبية السائدة فيه، وهو مطعم (قدو أبو الباكلة) الكائن في محلة (السفينة) في الأعظمية. أفتتح هذا المطعم وبدأ بداية بسيطة في محل متواضع في بداية الثمانينات من القرن الماضي، ثم أخذت شعبيته تترسخ وتتوسع. ولقد انتقل نقله نوعية في ظل ادارة (اياد المحترم)) (٢٢) .

تتحقق في هذا النص خلاصة آراء النقاد وأشهرها من وجهة نظري في مسألة (القديم والحديث) وهو ((أن تأخذ من القديم ما تطور به الحديث)) أن أقر التراث القديم وأستلهم منه الدروس والعبر في مواصلة المشوار بطريقة حديثة. وهذا ما هو شائع في أغلب الدراسات الأكاديمية في الوقت الحاضر. وهو أن تأخذ الجهود الشعرية والنثرية والنقدية القديمة ويتم دراستها وفق آليات المناهج النقدية الحديثة. كالسيميائية والتفكيكية والتأويلية وغيرها من المناهج النقدية. هذا هو شأن هذه الأكلة التراثية (باقلاء بالدهن) اذ نجد أن هدا النوع من الطعام قد اشتهر منذ عشرات السنين في العراق ولكن عجلة الزمن السريعة والتطور والمدنية التي اجتاحت العالم لم تستطع أن تفقده هويته فقد بقي محافظاً على تراثيته وخصوصيته. بل أقر وتطور وأصبح زاد

للمترفين بعد ان كان زاد للشعبيين والفقراء.

نوع تراثي آخر سجله القاص ووقف عنده وأضافه الى قائمة الأطعمة التراثية وهو (الباقلاء المسلوقة) اذ يقول الكاتب :((في الزمن الماضي كانت في كل محلة امرأة أو أكثر يقمن ببيع الباقلاء المسلوقة لأهل المحلة. اعتدن أن يضعن قدراً كبيرة مملوءة بالباقلاء المسلوقة، وهي تغلي فوق (بريمز) ، فيتقاطر الزبائن، وهم عادة من النسوة والصبية وكل يحمل صحناً وعدداً من أرغفة الخبز يناسب عدد أفراد الأسرة فتضع بائعة الباقلاء الأرغفة في القدر، وتأخذ بتقليبها، ثم تستخرجها وتضعها في الصحن بعد أن تنقع، لتضع فوقها كمية من حبوب الباقلاء وترش فوقها مسحوق (البطنج) . أما الدهن المغلي والبصل فأن ربة البيت هي التي تتولى اضافته فوق الثريد)) (٢٣) .

عادات وتقاليد لم يحالفها الحظ في الديمومة والاستمرار. اذ نجمت وشاعت في مدة زمنية معينة. ثم انقرضت. فلم تسعفها قواها على الصمود أمام هذا التطور الذي اجتاح العالم في كل ميادينه فتغلغل في كل تفاصيل الحياة بدءاً من أعلى المستويات وانتهاءاً بأدناها. أورد القاص ذكرها في هذا الموضع للدلالة على شعبيتها وتراثيتها. وكيفية تعلق الناس بها في ذلك الزمن. فكانت هذه العادات تخلق لهم عالماً من البهجة والسرور. وخصوصاً لدى الأطفال وهم يذهبون بصحبة أمهاتهم الى بائعة الباقلاء ليستمتعوا بحسن الأجواء والمنظر الرائع.

وهناك انموذج آخر للطعام فريد من نوعه أورده الكاتب في مجموعته اذ يقول ((وأنا أجلس في مطعم شعبي على ساحل البحر في لبنان، وصاحب المطعم يدعوني الى مشاهدة أربعة غواصين، يستعدون للغوص، ويعدني بإعداد وجبة غداء شهية مما سيستخرجونه أو يصيدونه من البحر. غاص الغواصون. وسرعان ما خرج أحدهم وطفا على سطح الماء، ليقترب منا ويلقي على أرض المطعم قطعة من اللحم، تشبه الاخطبوط، ولكن ليس لها أذرع فاسرع صاحب المطعم ليسلخ جلدها ويقطعها قطعاً صغيرة فرحاً، بينما أخد صوت، لا أعرف مصدره يبين طبيعة الصيد الذي أثار استبشار صاحب المطعم وقال الصوت نصاً هذه طحالب بحرية لا قلب لها بل عضلات، وهي الطعام المفضل لدى سكان قضاء (بيت الدين)، وفاعليتها عجيبة في علاج المفاصل لذا فلا أحد من سكان القضاء يشكو ألم المفاصل ... انها الحسكل))(٢٤) .

ينقلنا القاص في هده القصة الى لبنان ليأتي لنا بنوع من أنواع الطعام البحري غريب نوعا ما في بلدنا العراق فهو الحسكل. هذا النوع من الأطعمة يلائم طائفة معينة من الناس بالرغم من فوائده الكثيرة لعلاج كثير من الأمراض لكنه يبقى محصور في نطاق معين لا تعرفه الا فئة خاصة. فالكاتب ذكره في هذه القصة لمناسبة جمعته به وليبين مدى فأئده هذا النوع من الأطعمة.

الخاتمة

المادة التراثية ليست مادة قديمة جامدة انتهى مفعولها. بل هي مادة ديناميكية تتواصل مع الحاضر، ولا تنفصل عنه بل أن الحاضر هو امتداد للتراث الذي يمثل هوية الشعب، والمجدد لملامح شخصية المتميزة. وبالتالي هو ركن من أركان الحضارة واللجوء اليه يحقق استمرارية التواصل بين الماضي والحاضر. وتجنب انقطاع سلسلة الأفكار التي تستمد من القديم أصالة التراث لتخرجه بحلة جديدة تليق بالتطور الدي يحدث بالمجتمع.

لذلك نجد أن القاص في هذه المجموعة القصصية استمد من التاريخ العريق الذي تمتع به في طفولته وصباه لينقل للقارئ أصالة هذا التراث الذي كاد أن ينقرض لولا بعض مقومات الحياة التي تستوجب الرجوع اليه واستلهام العبر والدروس منه. فنلحظ أن القاص ركز كثيراً على الأشياء الموروثة المتنوعة كالأشخاص والأمكنة والعادات والتقاليد. وحرص على تقديمها للقارئ بحلة فنية وصور حية ليطلع عليها ويستمد من تراثه ما يواصل به مشواره في الحداثة.

المصادر

*القرآن الكريم

١-الألسنية والنقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، موريس أبو ناضر، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٧٩، د. ت.

٢-بناء الرواية، أودين موير، ترجمة، ابراهيم الصيرفي، دار الجيل، مصر، د. ت.

٣-التراث وأثره وتوظيفه في مسرح توفيق الحكيم، وطفاء حمادي هاشم، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨

٤-التراث العربي الاسلامي (دراسة تاريخية مقارنة) ، حسين محمد سلمان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٨

٥- دلالات المكان في روايات هيثم بهنام، محمود ناصر نجم، دار الكتب والوثائق، بغداد، ٢. ١٦، ط١

٦-لسان العرب، ابن منظور، مادة(و، ر، ث) ، دار صادر، بيروت، م٢

٧-لغة الشعر(بحث في المنهج والتطبيق) ، يوسف داوود أحمد، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، سوريا، د. ط، ١٩٨.

٨-معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس، مكتبة لبنان، ١٩٧٩

٩-النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي

هلال، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، د. ت، د. ط

١. -همس السواقس(حكايات من عصري الجليد والرماد) د. جبير صالح حمادي، مطبعة تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط١، ٢. ١٦

الهوامش

١-ينظر، لسان العرب، ابن منظور:١١١-١١٢

٢-معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة وكامل المهندس:٥٣

٣-التراث وأثره وتوظيفه في مسرح توفيق الحكيم، وطفاء حمادي هاشم :٩

٤-ينظر، لغة الشعر(بحث في المنهج والتطبيق) ، يوسف داوود أحمد :٦٣

٥-التراث العربي الإسلامي، حسين محمد سلمان:١٧

٦-بناء الرواية، أودين موير:١٦

٧-النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال:٥٢٨

٨-ينظر، الألسنية والنقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، موريس أبو ناضر:٢.

٩-همس السواقي (حكايات من عصري الجليد والنار) د. جبير صالح حمادي:١٣

١٠ -المصدر نفسه:٣٥

١١-المصدر نفسه :١٢٦-١٢٧

١٢-دلالات المكان في روايات هيثم بهنام بردى، محمود ناصر نجم:٢٢

١٣-همس السواقي-٤٩

١٤-المصدر نفسه:٧.

١٥- المصدر نفسه:١٥.

١٦-المصدر نفسه:١٢-١٣

١٧-المصدر نفسه:٧٣

١٨:المصدر نفسه:٧٥

١٩-المصدر نفسه:١١-١٢

٢٠ -المصدر نفسه:١٣٨

٢١-المصدر نفسه:٧٧

٢٢-المصدر نفسه:٧٩-٨.

٢٣-المصدر نفسه:٨١

٢٤-المصدر نفسه:١٥٤-١٥٦